الفصل الأول

بين العقيدة والتطبيق الدقيق

" من كد على عياله فهو كالمجاهد في سبيل ا لله "

حديث شريف

(لا خير فيمن لا يجمع المال من حله يكف به وجهه)

سعيد بن المسيب

الفرع الآول
عصر الصحابة والتابعين

المبحث الآول:

عصر الصحابة

فى الفصل الحالى سياحة فى ضمير الزمان، نستعرض تطبيقات رسالة الإسلام منذ نزلت.

كانت غزوة تبوك آخرة الغزوات وأكثرها جنداً، وأشقها حشداً، قصد بها عليه الصلاة والسلام إلى تخوم الروم حيث كان "هرقل" إمبراطور الرومان يحتشد ولم يكتم النبى الكريم استعداده كما هى العادة، وعلم هرقل فانسحب إلى ممتنع بلاده، واكتفى ﷺ بانسحاب العدو إلى داخل بلاده، ورجع بالجيش ظافراً بالسلام، يؤمن القبائل، معلناً أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين وهى حقيقة كبرى تعلنها تجارب أربعة عشر قرناً ولن يتخلف الإعلان حتى آخر الزمان.

الخلفاء الراشدون:

في عصر الصحابة والتابعين وتابيعهم اتخذت الانتصارات سبلها في القارات الثلاث المعروفة في ذلك الزمان:

يقول – عليه الصلاة والسلام –: "خير القرون قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم" والقرن: الجيل.

ويقول عن صحبه: "أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم".

والله – جل ثناؤه – يقول فيهم: ﴿محمد رسول الله والذين معه﴾[١٣٠].

ومن هذه "المعية" كانت صلتهم وتقى بالقرآن، إذا افترقوا تلوا سورة العصر وأقسموا قسمها: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾[١٣١].

والإمام الشافعي يقول عنها: لو لم ينزل غيرها من القرآن لكفت.

ومن كمال العقيدة فيهم كانوا يعتبرون الرياء هو "الشرك الأصغر" ومع ذلك صبر رسول الله على المنافقين، ولم يهتك لهم ستراً، والمقطوع به أن بعضاً حاول ذلك بذكر أسماء له وأستأذنه فلم يأذن. وهي علامة على عالمية المجتمع وسماحة الدين وسيادة الحرية الفكرية والشخصية فيه.

والله – تعالى – يجمع المشركين والمنافقين حيث أراد. قال سبحانه–: ﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾[١٣٢].

١– لم يكد أبو بكر يتلقى البيعة حتى ثارت القبائل ترفض الطاعة أو التكليف المالي في العبادات، فحاربهم أعظم حروب الإسلام شأناً، ثم وجه جيوشه إلى خارج الحدود للدفاع عن الإسلام، فوحد الأمة تحت راية منتصرة.

وكان أبو بكر في الجاهلية والإسلام تاجراً صدوقاً يعيش من عمله، وقد يرحل إلى الشام ليكسب ما ينفقه، وكان يحكي لرسول الله ﷺ أنباء رحلاته ورفقاء الرحلة من الصحابة، وإذا جند الرسول جيشاً جاءه أبو بكر بكل ماله، ويقول رسول الله له: "ماذا خلفت لأهلك؟" فيقول: خلفت لهم الله ورسوله.

---

(١٣٠) سورة الفتح، الآية ٢٩.

(١٣١) سورة العصر.

(١٣٢) سورة النساء ، الآية : ١٤٠.

٢- وسار عمر في طريق أبى بكر، بالعدل والمساواة وبالرحمة مجتمعة، فجاع مع الأمة إذ جاعت حتى هزل جسمه.

وكان قائداً أعلى لقواده العظماء، وهم أمين الأمة أبو عبيدة، وسعد بن أبى وقاص فاتح العراق وفارس وعمرو بن العاص - فاتح مصر حتى طرابلس - ومن تعاليمه لهم أقواله الخالدة: (إن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم). وما هى إلا إعلانات في ساحات القتال عن عدم الانفصال بين العقيدة والعمل بها في السلم والحرب والمسلمين وغير المسلمين.

٣- وخلفه صهر النبى عثمان بن عفان، وازدادت في عهده الفتوح في الشرق والغرب والشمال والجنوب، وكان يعمل بالتجارة في حياة الرسول ومن بعده.

وصعدت روحه وجيوش الإسلام تنتصر في آسيا وأفريقية وفي أرمينية.

٤- وجاء دور على بطل حروب النبى، وإمام العلم والزهد والقضاء، وبناء دول يفصح عن عظمته عهده للأشتر النخعى إذ ولاه مصر.

أما بقية العشرة المبشرين بالجنة فهم:

١- **عبد الرحمن بن عوف:** وكان حظه من التجارة عظيماً، وقد قاسم الله ماله مرات أربعة في حياة رسول الله ﷺ في عشرات آلاف الدنانير. وقيل: إنه أعتق في حياته ألف عبد.

وقد أوصى للأحياء من أهل بدر، وكل أخذ نصيبه بما فيهم أمير المؤمنين عثمان.

٢- **طلحة بن عبيد الله:** هو كعبد الرحمن من أوائل المسلمين، ومن أبطال أُحُد، أصيب عبد الرحمن بعشرين جراحة صار بعدها أعرج، وأصيب طلحة بسبعين، كلها في الصدر، ومشاركاته بماله من عهد الرسول معروفة، فهو من أجواد العرب.

٣- **الزبير بن العوام:** ابن عمة رسول الله ﷺ. كان عبيده لا يحصون، وقد أثرى بعد وفاة رسول الله، وهو أول فارس من فرسانه ﷺ وفاتح حصن بابليون بمصر.

٤- **سعد بن أبى وقاص:** قائد فتح العراق وفارس، لم يعرف عنه أنه كان ذا مال كثير، ولاه عمر القيادة، فظفر بجيش الفرس، وكان من أخوال رسول الله.

٥- **أما سعيد بن زيد بن نفيل:** فكان ربانياً مجاهداً، لم تشغله الدنيا، وإن قرأنا عنه أنه في أول الإسلام كان في قافلة من قوافل التجار.

٦- **وأما أبوعبيدة بن الجراح:** فقائد الجيوش المنتصرة في الشام على الرومان، ولما زاره عمر في بيته خرج يقول: كلنا غيرتنا الدنيا إلا أنت ياأبا عبيدة.

وإذا كانت سمة القرن الأول هى فتوح الإسلام التى ليس لها في التاريخ نظائر، فإن سمة القرن الثانى ليست أقل عجباً؛ لأنه قرن العلم الذى ليس له نظائر، فأبوحنيفة من آخر مواليد عصر الصحابة، وجابر بن حيان - أول كيماوى في التاريخ - من آخر مواليد عصر التابعين، وهو طليعة "العلم التجريبى" الذى ورثه العالم الحديث عن المسلمين...

وفي أواخر القرن الثانى وضع الشافعى أصول الفقه، فغدت أصولاً للفهم وللفكر وللعلم، وعليها بنى علماء الاسلام، وفيهم الفلكيون والأطباء والمهندسون والجغرافيون والفلاسفة الذين آلت علومهم إلى أوربة، وكلهم قرآنى أو دارس للقرآن وللسنة.

ومنهم علماء فى كل المذاهب.

ولا عجب إذا أشارت أسماء العلماء إلى عشرات الحرف فى التجارات والصناعات من البقالة إلى الحلوى إلى الصابون حتى تجارة اللؤلؤ

والصرافة، إلى صناعة الأرسان في دولة للعلم، نما فيها الاقتصاد حتى قال (هارون الرشيد) للسحابة المارة: اذهبى حيث شئت يأتنى خراجك.

المبحث الثانى:

عصر التابعين وتابعيهم وأئمة الفقه الأربعة

١- ربما ساغ لنا أن نتخذ من سعيد بن المسيب (٩٤هـ)

مثالاً لفقهاء التابعين في القرن الأول، فهو ملقب (بعلامة التابعين) وهو واحد من المعلمين السبعة للمدينة في القرن الأول، وأبوه مخزومى، صحب رسول الله ﷺ.

لم يبايع سعيد لولاة بنى أمية مع ضربه سبعين سوطاً في رفضه الأول، وستين سوطاً في رفضه الثاني، وما رفض إلا لسوء رأيه في الدولة الأموية والدولة المروانية، بل كف عن قبض عطائه زهداً في الدولتين، واكتفى بمرابحة من أربعمائة دينار.

وسيقتفى أثره في الزهد والتعليم والعيش من المرابحة سفيان الثورى ومالك بن أنس، وآخرون من الزهاد والفقهاء.

وبهذا الاستثمار نشهد تطبيقاً للشريعة بنظام الشركة الذى آل إلينا من فقه القرنين الأول والثانى معاً، ومن مأثورات سعيد قوله: (لاخير فيمن لايجمع المال من حله يكف به وجهه عن الناس) وقوله عن مرابحته: (اللهم إنك تعلم أنى لم أمسكه (المال) بخلاً ولا حرصاً ولا محبة للدنيا، ولكن لأعود به على الأرملة والفقير، وإنما أريد أن أصون به وجهى عن بنى مروان).

والغنى عند الأئمة غنى عن المال، وفي ذلك شعر للإمام الشافعي (وليس الغنى إلا عن الشيء لا به).

٢- والإمام جعفر الصادق (١٤٨هـ):

نتاج قرن من العظائم، وهو إمام سياسة وفقه واقتصاد، يقدم نفسه للناس بقوله: (ولدني رسول الله ﷺ مرتين "من قبل آبائه" وأبو بكر مرتين "من قبل أمه" وكسرى يزدجرد مرتين (لما تزوج ابن أبي بكر -جده - من بنت كسرى) وإليه تنتمي فرق الشيعة الإمامية أو الإسماعيلية.

وهو - بعد - إمام لمالك بن أنس، وشيخ لأبي حنيفة، وهذان إمامان لأهل السنة، وعليهما تعلم باقي أئمة السنة، فالشافعي تلميذ لمحمد بن الحسن - صاحب أبي حنيفة - ولمالك بن أنس، والشافعي شيخ أحمد ابن حنبل.

وقد شرحنا منهج الإمام جعفر الاقتصادي والسياسي بتفصيل في كتابنا عنه[١٣٣]، وحسبنا هنا مايدخلنا في صميم الاقتصاد و(علم المالية) وماهو إلا منهج جده لأبيه أمير المؤمنين علي، وعليه قامت دول كبرى للإسلام في آسيا وأفريقية، وفي الأندلس بأوروبة.

يقول أمير المؤمنين على لواليه على مصر الأشتر النخعي عن مالية الدولة واقتصاد الأفراد:

١- (وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله؛ فإن في صلاحه صلاحاً لمن سواهم؛ لأن الناس عيال على الخراج).

---

(١٣٣) الإمام جعفر الصادق - طبعة دار المعارف.

٢- (وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في جباية الخراج؛ لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد، وأهلك العباد ..).

٣- ويقول في خصوص التجارة: (ثم استوص بالتجار وذوى الصناعات وأوص بهم خيراً، المقيم منهم والمضطرب بماله، والمترفق ببدنه.. وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حواشى بلادك .. واعلم أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً وشحاً قبيحاً، واحتكارا للمنافع، فامنع الاحتكار).

٤- (ثم اللهَ اللهَ في الطبقة السفلى من الذين لاحيلة لهم، والمساكين والمحتاجين، وأهل البؤس والزمنى .. واجعل لهم قسماً من بيت مالك..).

وتعاليم الإمام جعفر في المال تسقى من هذا الينبوع. وإليك أمثالاً:

١- (مصيبتان لم يسمع بهما في الأولين والآخرين للعبد في ماله عند موته: يؤخذ منه كله، ويسأل عنه كله).

٢- (أيما أهل بيت أعطوا حظهم من الرفق فقد وسع الله عليهم في الرزق).

٣- (والرفق في تدبير المعيشة خير من السعة في المال).

٤- (ضمنت لمن اقتصد ألا يفتقر).

والتعاون أساس في المذهب.

يقول عنه:

٥- (ليُعِنْ بعضكم بعضا، فإن أبانا رسول الله ﷺ كان يقول: "إن معونة المسلم للمسلم خير وأعظم أجراً من صيام شهر، واعتكاف شهر في المسجد الحرام".

٦- (إياكم وإعسار أحد من إخوانكم المسلمين؛ فإن أبانا رسول الله كان يقول: "ليس لمسلم أن يعسر مسلماً").

٧- (قيل: يارسول الله، أفى المالى حق سوى الزكاة؟ فأجاب: "نعم، بر الرحم إذا أدبرت، وصلة الجار المسلم، فما أقر بى مسلم شبعان وجاره المسلم جائع" ثم قال: "مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه").

٨- ولما قال تلميذ لجعفر: إنى لا أتغذى إلا ومعى اثنان أو ثلاثة قال: (فضلهم عليك أكثر من فضلك عليهم، إذا دخلوا دخلوا بالرزق الكثير).

٩- (المعروف زكاة النعم).

فما أكثر ما يلزمنا من المعروف. وصدق الله العظيم: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾[١٣٤].

١٠- قال صاحب له: رأيت عنده ضيفاً قام يوماً في بعض حوائجه، فنهاه، وقام بنفسه إلى هذه الحاجة. وقال: نهى الرسول عن استخدام الضيف.

١١- والإمام يعمل بيده عند اللزوم، ويلوم من لا يعملون. يعمل بالمسحاة في بستان له، وتنساب حبات العرق على وجهه، ويتسارع الناس لمعاونته فيقول: (إنى أحب أن يتأذى الرجل بحر الشمس في طلب المعيشة) ويقول: (إنى لأعمل في بعض ضياعى؛ ليعلم الله أنى أطلب الرزق الحلال).

١٢- أما العمل في التجارة فنوعان عنده: تجارة مع الله، وأخرى مع الناس. يقول: (إنى لأملق أحياناً فأتاجر مع الله بالصدقة، فيرزقنى وأتسع).

ومن آباء الشيعة سلمان الفارسى وقد عمل لأمير المؤمنين عمر على أصفهان، وكان يهب رزقه من الولاية للناس، ويعمل الخوص بيديه ليعيش.

والإمام جعفر يعلمنا أخلاق التجارة فيقول: (كل ذى صناعة مضطر إلى ثلاث خصال: أن يكون صادقاً، مؤدياً للأمانة، مستميلاً لمن استعمله) وما هذه إلا حسن الخلق.

---

(١٣٤) سورة إبراهيم، آية ٣٤، وسورة النحل آية ١٨.

وكما يترفق الإمام بيده ويضطرب بماله، يوصى بالآمرين:

جاءه من يرجوه أن يدعو الله له ألا يكون رزقه على أيدى العباد، فأجابه: (أبى الله عليك ذلك، أبى الله إلا أن يجعل رزق العباد بعضهم من بعض، ولكن ادع الله أن يجعل رزقك على يد خيار خلقه، فإنه من السعادة، ولا يجعله على أيدى شرار خلقه، فإنه من الشقاوة).

وهو يعلم العاملين أن يقبلوا المصاعب، بقوله: (ليس لأحد - وإن ساعدته الدنيا- بمستخلص غضارة العيش إلا من خلال مكروه).

ويرى العمل بالسوق عزاً وكرامة، ويوصى بالسوق وارتيادها، أى: بالتجارة ويقول: (لا تدعوا التجارة فتهونوا).

حدث واحد من أتباعه فقال: رآنى أبو عبد الله يوماً وقد تاخرت عن السوق فقال: (أغدُ إلى عزك).

وقال له آخر: هممت أن أدع السوق. فقال له: (إذن يسقط رأيك ولا يستعان بك في شيء).

وقال لمن ترك التجارة: (لاتتركها؛ فتركها مذهبة للعقل. اسع على عيالك، وإياكم أن يكونوا هم السعاة عليكم).

وتعاليم الإمام في صدد الأسرة دروس مستمرة للمسلمين. يقول:

(البنات حسنات، والبنون نعم، والحسنات يثاب عليها الإنسان، والنعم هو مسئول عنها).

ويجمع بين تخفيض المهور وبين كرامة المرأة وإكرام الجار فيقول: (الشؤم في المرأة كثرة صداقها، وعقوق زوجها، وفي الدار ضيق مساحتها، وشر جيرانها).

ويقول في الاقتصاد العائلى: (إصلاح حال التعايش على مكيال، ثلثاه فطنة وثلثه تغافل).

ويقول: (جاهل سخى أفضل من ناسك بخيل).

وحديث جابر بن حيان – أول صيدلانى في التاريخ – طويل عن شيخه الإمام جعفر الصادق، وجابر ينسب إلى الإمام أسباب توفيقه في تجاريبه.

يخاطب الإمام في أول (كتاب الأحجار) بقوله: (وحق سيدى، لولا أن هذه الكتب باسم سيدى لما وصلت إلى حرف من ذلك إلى الأبد).

ويحصل جابر طريقته في عبارته المأثورة: (عملته بيدى، وبعقلى، وبحثته حتى صح .. وامتحنته فما كذب).

وفي هذا المقام يقول أستاذ الفلسفة المعاصر د. زكى نجيب محمود: (..فلو شئت تلخيصاً للمنهج الديكارتى RénéDescartes – كله لم نُجد خيراً من هذا النص الذى أسلفناه عن جابر)[١٣٥].

وحديث مالك عن الإمام جعفر بالمدينة طويل كذلك – كان مقره المدينة المنورة، والإمام الشافعى يروى حديثه عن أبيه عن جده، ومن بعده كل الفقهاء والمحدثين.

وتعاون الجماعة لايجد مثلاً عليه أكثر وضوحاً من عمل الإمام جعفر.

وهو يدخل التاريخ باعتباره بناء دول، وإمام فكر حر، وقدوة في التعاون كمنظم داخلى للاقتصاد..

وسنقرأ فيما بعد بياناً عن بعض قوافله التجارية.

٣- الإمام الأعظم (لأهل السنة) أبو حنيفة (١٥٠هـ):

ربما نسبت هذه الدرجة في العظمة لأبى حنيفة لأسباب – أو لواحد منها–: أن مذهبه يدعى (مذهب السلطان) وقد دأب صاحبه (أبويوسف) على

(١٣٥) كتابنا (الإمام جعفر الصادق) طبعة دار المعارف.

تعيين القضاة من المذهب، أو لكثرة الآخذين به من الأمة في مجموعها، أو لأن أئمة المذهب متعددون، وهو إمامهم الأكبر، أو أنها صيغة في التضخيم من شعوب دأبها التضخيم لما يهوون تضخيمه.

وهو القائل: (إذا كان التابعى رجلاً فأنا رجل).

وبهذا تفتحت الأبواب على مصاريعها للاجتهاد.

وإنه لأحق بالعظمة لأنه – على غرار رسول الله عليه الصلا والسلام – كان "رحمة بالأمة" حيث قال أبو حنيفة: (الإيمان يتم بالتصديق بالقلب والإقرار باللسان).

وأعلن أن مرتكب الكبيرة لايفقد الأمل في عفو الله، فقد يغفر الله له إذا استغفره، يقول: (إن الأجمل بالناس أن يستغفروا الله لمرتكب الخطيئة، فذلك أفضل لخصلتين:

١) لأنه مؤمن.

٢) لأننا لاتستيقن أن الله معذبه عليها.

(والدعاء لأهل الشهادة بالمغفرة أفضل، وعسى الله أن يتوب على العباد.

وحساب الناس عن أعمالهم "مرجأ" إلى يوم الحساب.).

وبهذه المبادئ كان أبو حنيفة إماماً في السماحة، نجا بها كثيرون من الخطر، فغلق الأبواب في وجه زبانية العذاب الذين يتصيدون الناس بسقطات اللسان، أو بالإهمال، أو بفساد الأعمال، في زمن كان فيه الشك في الإيمان تهمة رائجة.

ومن مبادئه: أن اليقين لا يزيله الشك.

وأبو حنيفة هو القياس الأعظم بالتجائه في الاجتهاد إلى القياس، وهو من أسس التطور.

ومن مبادئه حرية الاجتهاد وحرية الاختلاف، إذ يقول: (علمنا هذا رأى، فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه) قيل له: فلان يقول: (لا أدرى نصف العلم) فقال ساخراً: (ليقلها مرتين ليكون له كل العلم).

وهو إمام بشجاعة الاستشهاد من أجل رأيه يوم أبى أن يلى القضاء لأبى جعفر المنصور، وآثر أن يموت في سجنه، فمات وهو ساجد!!.

والذين يتساءلون: كيف اجتمع له أن يكون علمى الطريقة، ربانى السلوك، لا يستبقى لنفسه إلا نفقة عياله؟ قد لايعرفون أنه نُتج في حلقة الفقه لحماد بن إسماعيل قادماً إليها من "السوق" وهو مدرسة الدنيا.

وليس لدينا من التفصيلات عن تجارة أبى حنيفة كثير، والقليل الذى وصلنا منها ينبئ أنها تجارة مع الله والناس، جماعُها تطبيق الشريعة تطبيقاً صحيحاً في العبادات، دقيقاً في المعاملات:

١) يتنازل عن الصفقة المشوبة وأرباحها، ولايتصدق بها، فهذا مال مشوب بالحرام.

٢) وإذا لم يبين شريكه العيب رد الصفقة، وإن كانت بعشرات الألآف، أو باع الثوب بثلاثين ألفاً وتصدق بثمنه.

٣) واللهَ اللهَ في النساء بائعات له أو مشتريات منه.

٤) كان الدكان الذى اختاره لنفسه في دار عمرو بن حريث صاحب النبى - ﷺ - وقد بنيت في أول بناء مدينة الكوفة، وكانت معاملات الدكان جديرة بهذا المكان:

١) جاءته إحداهن بثوب خز تبيعه بمائة، قال: هو أكثر من مائة.

قالت: بعت بمائتين. قال: هو أكثر.

قالت: أتهزأ بى؟ قال: هات رجلاً.

فجاءت برجل قَومَهُ بخمسمائة، فاشتراه.

٢) وإذا راح يقتضى ديناً له لم يجلس في "ظلال الدار" لأنه لايريد أن يقتضى أكثر من الثمن، وحتى لايضيف إلى عسر المدين ترصد الدائن له.

٣) وهذا تلميذ له كان يحل محله في الحانوت – فالشيخ لايضن على التلاميذ بالتدريب – باع للمشترى سلعة بألف درهم واف، وخدع في ثمنها المشترى. فأبى الشيخ إلا استرداد المبيع ورد الثمن .. قال المشترى: إن في الثوب ما يستبقيه لأجله، وأصر على اقتنائه، فتراضيا على ثمن جديد أقل.

وازدهرت تجارة أبى حنيفة حتى كانت منها نفقة التلاميذ الفقراء في الحلقة – وهى كبيرة – دامت أعواماً ثلاثين.

٤) وربما أجزأ في شأن هذا الحانوت قول شَريكٍ لأبى حنيفة: على مدى ثلاثين عاماً: لم أجد أحداً يتوقى مما لا خطر له مثله .. وإذا دخلت عليه شبهة من شيء أخرج من قلبه ذلك الشيء ولو بجميع ماله.

١) سجل التاريخ لحلقة أبى حنيفة "ابتكار" تدوين الفقه، وأنهم كانوا إذا انتهوا إلى مسألة قال الإمام لواحد منهم: اكتبها في الباب الفلانى.

٢) كما سجل التاريخ لها قول الجاحظ عنها: (قال عمر: "تفقهوا قبل أن تسودوا") وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن، ويجالس الفقهاء خمسين عاماً، وهو لايُعد فقهياً، ولايجُعل قاضياً، وماهو إلا أن ينظر في كتب أبى حنيفة ويحفظ كتب الشروط في مقدار سنة أو سنتين حتى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال "كبار الموظفين" وبالحرى ألا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكماً على مصر من الأمصار، أو بلد من البلاد).

٤- الإمام مالك: إمام أهل المدينة (١٧٩هـ):

لمالك في شئون الاقتصاد دروسه في المعاملات. وكتب مذهبه - وهى تمثل الفقه العملى - أو علم المدينة وعملها به.

وبفقه مالك عملت المقاطعات الجنوبية لفرنسا، وقد عاش فيها المسلمون أكثر من قرنين من الزمان، وأثر ذلك ظاهر في قانون نابليون.

كما عملت به الأندلس طوال عصرها الذهبى، وبقيت حضارتها غالبة حتى بدايات القرن السابع عشر حين جلا عنها العرب والمذهب معمول به في دول شمال افريقية.

ولقانون نابليون مصدران: الفكر الكنسى من شمال فرنسا، والعادات من جنوبها، والحضارة الأندلسية كلها في جوار الجنوب ثمانية قرون.

وعندما أدخل قانون نابليون إلى مصر أجرى بعض علماء مصر مقارنة بين قانون نابليون في المعاملات ومذهب مالك.

الفرع الثانى

الاكتساب والزهد

المبحث الأول

الإمام محمد بن الحسن - صاحب أبى حنيفة - وكتاب الاكتساب

ربما كان كتاب (الاكتساب) الكتاب الفقهى الثانى للاقتصاد، حيث الأول كتاب الصاحب الأول لأبى حنيفة أبى يوسف للرشيد (الخراج) وهو كتاب في "مالية الدولة" وهى فرع في الاقتصاد.

فمحمد في كتابه بين لنا فقه السلف الصالح، ويختار لنفسه مذهبا فيه.

لم تطل تلمذه محمد بن الحسن الشيبانى للإمام أبى حنيفة، كما كانت أقصر من تلمذته على أبى يوسف، والتاريخ يطلق عليهما أنهما "صاحبا الإمام"، فالأول: هو الذى جعل الفقه الحنفى مادة القضاء في أوسع دول العالم. والثانى: هو الذى حرر المذهب فضمن له مكانته الرفيعة وأسبيقته بين المذاهب، وكان بارعا في العربية معروفاً بالورع، أنفق الآلاف التى ورثها ليتعلم، وأنفق أكثر منها على تعليم الآخرين، وهو يمتاز عن أبى يوسف بأنه كان أزهد منه في مقاربة السلطان، ومع زهد محمد قبل العمل في القضاء، فأحدث السلام بينه وبين الخليفة الرشيد ودولته، وعاملهما باستقلال.

وقد يكفينا من تمثيله لصميم الإسلام موقفه العلمى من المذاهب كافة، وموقفه الأبوى لرجالها: إذا كان "موطا مالك" بن أنس أعظم كتب مذهب مالك فلمحمد رواية خاصة للموطأ تمتاز بأنها مقارنة بينه وبين ما عاصره من المذاهب، وكان محمد من تلاميذ مالك مثلما كان الشافعى تلميذا لمالك، وله على الشافعى فضل كبير، إذ نجاه من الإعدام في إحدى محاكمات الرشيد

المباغتة للشيعة في اليمن... ومحمد جالس إلى جوار الرشيد فشهد لـه (أن مـا رفع عليه ليس من شأنه) وأنه (من أهل العلم) لا من الثوار.

ثم جلس الشافعي الى محمد، ثم فصل عن العراق، وقد حمله محمد حِمْلَ بعير من كتب أبى حنيفة، وسنرى أثر ذلك في كتب الشافعي.

ولم يلبث الشافعي طويلا حتى أرسل رسالته الى عالم بغداد (عبدالرحمن ابن مهدى) وفيها أصول الفقه التى أمست أصول الفكر.

وأثر محمد في المذهب المالكى يتأكد من تعليمه لأسـد بـن الفـرات حيـن جاء من تونس للقاء مالك، فوجده قد قضى نحبه، فصار إلى بغداد يقضى مـع محمـد بـن الحسـن الليـالى الطـوال، ثـم يرجـع إلـى الفسـطاط بمصـر ليلقـى (عبدالرحمن بن القاسم) فيلقى عليه أسـئلة مـن دروسـه علـى محمـد ثـم يجمـع الأسئلة. ثم زاد عليهـا سـحنون مـا زاد وأسـماها (المدونـة) فـأصبحت السـجل العلمى الخالد بالفقه المالكى حتى الآن.

ومحمد أول من ألفوا المجلدات المفصلة لمذهب أبى حنيفـة وإليـه يرجـع أول كتاب ينعى على الزاهدين في العمل مسلكهم متأثرين بالأفكـار الهنديـة أو الفارسية.

وهو كتابه عن (الاكتساب للرزق المستطاب).

شهد محمد بن الحسن مع الدولة العباسية الحديثة تياراً وافداً عليهـا مـن صميم آسيا في الهند وخراسـان، تعـاظم أمـره مـع تفـاقم الأحـداث فـي الدولـة والمجتمع، وقرن رجاله الزهد في الدنيا بالزهد في العمل، فندب نفسه لمقاومـة التيار قبل أن يتسع خطره.

١- كان إبراهيم بن آدم (١٦٢هـ) من كبـار الزهـاد فـي عصـره، يقـول لتلميذه في الزهد "شقيق البلخى" (١٩٤هـ): ما بدء أمرك الذى أبلغك هذا؟

وأجابه شقيق – وهو شيخ حاتم الأصم، وهو فقيه صوفى = مررت ببعض الفلوات فرأيت طائراً مكسور الجناحين في فلاة من الأرض، فقلت لنفسى: من أين يرزق هذا؟! فقعدت بإزائه، فإذا طير أقبل وفي منقاره جرادة، فوضعها في منقار الطير مكسور الجناحين، فقلت في نفسى: إن الذى قيض هذا لهذا قادر على أن يرزقنى حيثما كنت، فتركت التكسب واشتغلت بالعبادة.

قال إبراهيم: ولم لا تكون أنت الطير الصحيح الذى أطعم الطير العليل حتى تكون أفضل منه؟ أما سمعت أن النبى –ﷺ– قال "اليد العليا خير من اليد السفلى"؟

٢– وفي القرن الثالث عاش زعيم المتصوفة "معروف الكرخى" وقد سئل عنه الإمام احمد بن حنبل هل كان عنده علم؟ فأجاب: كان عنده رأس الأمر كله. تقوى الله.

وأحمد (٢٤١هـ) من أئمة الصوفية الكبراء، يعمل بيده ليعيش، ويرحل أبعد الترحال في طلب العلم، ويعمل حمالا، أو ينسخ صحفا بأجر، أو يرهن أشياءه، وهو شيبانى من علية العرب، يأبى الاتصال بالخلفاء، ويأبى صلات الناس له إلا أن يكافئ عليها.

و"الجنيد" شيخ الصوفية في القرن الثالث يقول: كان أحمد بن حنبل ها هنا، وبشر بن الحارث "بشر الحافى" ها هنا، وكنا نرجو أن يحفظنا الله بهما، ثم إنهما ماتا وبقى "سَرِى" فأرجو الله أن يحفظنى "بِسَرِى".

ولعل "سَريا السقطى" – خال الجنيد – كان يعمل في التجارة لينفق الكثير على الزاهدين المتعطلين.

٣– بل سنقرأ في القرنين الرابع والخامس أن من المتصوفة من كانوا معطلين للعقيدة ذاتها، يقولون بسقوط التكليف عن بعضهم، كقول سعيد بن ابى الخير (٣٥٧ – ٤٤٠).

وفيهم قول الغزالى "إنه مذهب ظاهره الرفض، وباطنه الكفر المحض" بل سنرى "الباطنية" يجيئون بمعان جديدة للصلاة والزكاة والتوحيد، فالصلاة معناها: طاعة الله – لا الصلاة – والزكاة معناها طاعة الإمام – لا توزيعها على أصحاب السهام – وفي قرن تال أدخل "ابن عربى" معانى أخرى للصوفية، فللعلم الإلهى عنده (ثلاث طرق: التذوق، والكشف، ثم البحث والنظر، ثم ما يجئ به الأنبياء من أخبار).

وسنقرأ في القرن العاشر نقل عالم من العلماء هو الشعرانى (٩٧٥هـ) عن الولى (على أبى الوفا): أنه "رفع" كما رفع عيسى إلى السماء!!

فلا تعجب إذا كان الصوفية يشكون ابن تيمية فيحاكم، ويحبس مرة إثر أخرى! ومن بعده سنرى بعضهم في تكية من التكايا يلقون الإمام السيوطى بكامل ثيابه في الميضأة.

* * * * * *

تصدى محمد بن الحسن لهذا التيار قبل أن يتفاقم خطره باستعراض فقه الإسلام، فقال عن كتاب "الاكتساب" (وهذا الذى ثبت في هذا الكتاب هو قول عمر وعثمان وعلى وابن عباس وغيرهم من أصحاب رسول الله -ﷺ- ورضى عنهم أجمعين، وهو مذهب أبى حنيفة وأبى يوسف وزفر ومن بعدهم من الفقهاء – رحمهم الله – وبه نأخذ)[١٣٦] والكتاب رد من محمد بن الحسن

---

(١٣٦) يقول السرخسى في المبسوط ج ٢٤ – وقد توفى في القرن الخامس –: إن محمد بن الحسن وضع كتابا في الإكراه، وقد ابتلى بسببه – على ما حكى محمد بن سماعة تلميذه، قال لما صنف محمد – رحمه الله – هذا الكتاب سعى به بعض حساده إلى الخليفة "هارون الرشيد" (وقد صار محمد قاضياً للرشيد بعد أبى يوسف) قالوا للرشيد إن محمداً صنف كتاباً سماك به "لصاً" فأمر بإحضاره، فجاء به شخص، فأدخله على الوزير أولا في حجرته، فجعل الوزير يعاتبه على ذلك، فأنكره محمد أصلاً، فلما علمت السبب=

على الذين يقعدون عن العمل بدعوى الزهد – وقد مارسه بعضٌ في مجابهة الإسراف إذ ظهرت بوادره.

تبادرنا في الكتاب رواية محمد لحديث رسول الله –ﷺ– "طلب الكسب فريضة على كل مسلم" وقوله: "إن العمل لكسب الرزق مأمور به في الكتاب والسنة لحفظ النفس، ونماء المجتمع، والقيام بالعبادات ذاتها، مثل ما أن الماء ضرورة للوضوء والصلاة"، وما لا يتأتى الفرض إلا به يكون فرضا في نفسه، وهو – يعد – ضرورة بقاء ونماء وجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف وإزالة المنكر، ويروى عن أبى ذر قوله: "أفضل الأعمال بعد الإيمان الصلاة، وأكل الخبز، ولولا الخبز ما عبد الله تعالى" يقصد القدرة على العمل مع القناعة والطاعة.

٢– ويستطرد كتاب "الإكتساب" فيطرح قضية المفاضلة بين الغنى والفقر، ويعلن فيها رأيه بقوله: "ولو أن الناس قنعوا بما يكفيهم، وعمدوا إلى الفضول فوجهوها لأمر آخرتهم لكان خيرا لهم" والمسرف يأكل فوق حاجته

=أسرعت الرجوع إلى داره وتسورت حائط بعض الجيران، لأنهم كانوا قد سمروا على بابه، فدخلت داره، وفتشت الكتب حتى وجدت كتاب "الإكراه" فألقيته في جب الدار، لأن الشرط أحاطوا بالدار قبل خروجى منها، فلم يمكنى أن أخرج، واختفيت في موضع حتى دخلوا وحملوا كل كتبه إلى دار الخليفة بأمر الوزير، وفتشوها فلم يجدوا شيئا، فندم الخليفة على ما صنعه به، واعتذر إليه فلما كان بعد أيام أراد محمد – رحمه الله – أن يعيد تصنيف الكتاب فلم يجبه خاطره إلى مراده، فجعل يتأسف على ما فاته من هذا الكتاب، ثم أمر بعض وكلائه أن يأتى بعامل ينقى البئر، لأن ماءها قد تغير، فوجد الكتاب في آخُرةٍ أو حجر بناء من طى البئر لم يبتل، فسر محمد – رحمه الله – بذلك، وكان يخفى الكتاب زماناً، ثم أظهره، فعد ذلك من مناقب محمد، وما يستدل به على صحة تفريعه لمسائل هذا الكتاب.

فيبشم.

وفي واجب العمل يروى حديث تقبيل رسول الله -ﷺ- يد سعد، بن معاذ الأنصارى إذ رأى يديه قد أكتبتا من ضربه بالمر والمسحاة في نخيله للإنفاق على عياله، وقال "إن الكسب طريق المرسلين والصالحين من آدم إلى نوح - وكان نجاراً - فإدريس - وكان خياطاً - وإبراهيم - وكان بزازاً - وداود كان يأكل من كسبه، وسليمان - كان يصنع المكاتل - "المكتل: زنبيل من الخوص" ونبينا -ﷺ- رعى الغنم بمكة وهو صبى، وازدرع في أرض الجرف بالمدينة، وتاجر قبل النبوة، وقال عنه شريكه "السائب بن شريك": كان لا يدارى ولا يمارى "لا يلاح ولا يخاصم" قيل: في ماذا كانت الشركة؟ قال: في الأدم "الجلد".

وكسب المرء لنفسه مباح بإطلاق - بل فرض عند الحاجة - أما قول أهل التقشف وحماقى أهل التصوف إنه حرام لا يحل إلا عند الضرورة وينزل بمنزلة أكل الميته زعما بأنه ينفى التوكل على الله، فمردود بقوله تعالى ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾[١٣٧] ورسول الله يقول: "لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقتم كما يرزق الطير تعدو خماصا وتعود بطانا".

وحجتنا عليهم قوله - تعالى -: ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾[١٣٨] وقوله ﴿إذا تداينتم﴾[١٣٩] وقوله: ﴿إلا أن تكون تجارة عن تراض﴾[١٤٠] وقوله: ﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة﴾[١٤١] وقوله: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من

---

(١٣٧) سورة المائدة الآية ٢٣

(١٣٨) سورة البقرة الآية ٢٧٥

(١٣٩) سورة البقرة الآية ٢٨٢

(١٤٠) سورة النساء الآية ٢٩

(١٤١) سورة البقرة الآية ٢٨٢

فضل الله﴾[١٤٢] والمراد: التجارة.

ورسول الله -ﷺ- يقول: "إن أفضل ما أكلتم من كسب أيديكم، وإن أخى داود كان يأكل من كسب يده" والإكتساب طريق المرسلين".

ومر عمر بقوم من القراء "قراء القرآن" فرآهم جلوسا نكسوا رؤوسهم، فسأل: من هؤلاء؟ فقيل: هم المتوكلون؟ فقال: كلا، ولكن هم المتأكلون، يأكلون أموال الناس. ألا أنبئكم من المتوكل؟ هو الذى يلقى الحب في الأرض ثم يتوكل على الله - عز وجل -...

وكان أبو بكر بزازا، وعمر كان يعمل في الأدم، وعثمان كان يجلب الطعام ويبيعه، وعلى أجر نفسه غير مرة... وأتعجب من أمر المتصوفة أنهم لا يمتنعون عن أكل الطعام ممن أطعمهم من كسب يده، وربح تجارته، مع علمهم بذلك، ولو كان الاكتساب حراما لكان المال الحاصل به حرام التناول.

ثم المذهب عند جمهور الفقهاء أن الكسب بقدر ما لابد منه فريضة وبعد ذلك يسأل" هل الاشتغال بالكسب - بعد تحصيل ما لابد منه - أفضل أو التفرغ للعبادة أفضل؟" ويجيب: "قال بعض الفقهاء: الاشتغال بالكسب أفضل، وأكثر مشايخنا أن التفرغ للعبادة أفضل".

وشرح وجهتى النظر بقوله

٣- "وجه القول الأول: أن منفعة الإكتساب أعم.. والذى يشتغل بالعبادة إنما ينفع نفسه، وما كان أعم نفعا فهذا أفضل، لقوله -ﷺ- "خير الناس من ينفع الناس" ولهذا كان الاشتغال بطلب العلم أفضل من التفرغ للعبادة، لأن منفعة ذلك أعم، وإلى هذا المعنى أشار رسول الله في قوله "العبادة عشرة أجزاء" وفي قوله "الجهاد عشرة أجزاء، تسعة منها طلب الحلال"[١٤٣].

---

(١٤٢) سورة الجمعة الآية ١٠

(١٤٣) في كنز العمال "العافية عشرة أجزاء، تسعة في طلب المعيشة، وجزء في سائر الأشياء.

وبالكسب يتمكن المرء من أداء أنواع الطاعات: من الجهاد، وبر الوالدين، وصلة الرحم، والإحسان إلى الأقارب والأجانب، وفي التفريغ للعبادة لا يتمكن إلا من أداء بعض ذلك: كالصوم والصلاة.

٤- وجه القول الثانى وهو الأصح... لابد من القول بأن ما يكون بخلاف هوى النفس ابتداء وانتهاء فهو أفضل...وهذه المسألة تتبنى على مسألة أخرى اختلف فيها الفقهاء: هل صفة الفقر أعلى من صفة الغنى؟ فالمذهب عندنا أن الفقر أعلى، ولو أن الناس قنعوا.. وما زاد يحاسب المرء عليه، ولا يحاسب أحد على الفقر.

ولا شك أن مالا يحاسب عليه المرء يكون أفضل مما يحاسب المرء عليه.وأما من فضل الغنى فيقول: "الغنى نعمة.. قال - تعالى - ﴿وابتغوا من فضل الله﴾[١٤٤] هذا وارد في غير موضع، ورسول الله -ﷺ- يقول: "الأيدى ثلاثة: يد الله، واليد المعطية، واليد المعطاة فهى السفلى إلى يوم القيامة" وفي حديث آخر: "اليد العليا خير من اليد السفلى" وقوله لسعد بن أبى وقاص: "إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير لك من أن تدعهم عالة يتكففون الناس".

وحجتنا في ذلك أن الفقر أسلم ما يكون للعبد، وأعلى الدرجات ما يكون أسلم، ورسول الله يقول: "حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات".

٥- ويواجه محمد المتصوفة الجدد في زمانه بقوله -ﷺ- "من امتنع عن الأكل والشرب حتى مات وجب عليه دخول النار" أما من سعى لرزقه بما يسد رمقه ويقوى به على الطاعات فهو مثاب عليه، وفيما زاد على ذلك إلى حد الشبع هو مباح له، لكنه محاسب ومطالب بأمرين:

١- شكر النعمة فذلك حق الله.

---

(١٤٤) سورة الجمعة الآية ١٠

٢- وحق الجائعين فيها.

وفيما زاد عن الشبع هو معاقب، فذلك شهوة غير نبيلة، والأكل فوق الشبع حرام.

ويذكر محمد أنهم قالوا لأمير المؤمنين عمر: ألا تتخذ لك جوارشا؟ قال: وما يكون الجوارش؟ قالوا هاضوم يهضم الطعام. قال: سبحان الله، أوَ يأكل المسلم فوق الشبع؟!

ومحمد يرى أن الله - تعالى - قد ضمن توزيع العمل، وتخصص الناس وتقسيم العمل بينهم بقوله: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ وفي توضيحه يقول الرسول -ﷺ- "إن الله - تعالى - في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه المسلم".

وقال -ﷺ- لعبد الرحمن بن عوف: "ما بطأ بك عنى؟! إنك آخر أصحابى لحوقا بى يوم القيامة، فأقول: ما حبسك عنى؟ فيقول: المال. كنت محاسَباً محبوساً حتى الآن".

ولقد قاسم (عبد الرحمن) الله ماله أربع مرات: في المرة الأولى كان ماله ثمانية آلاف درهم، تصدق بأربعة، وفي الثانية كان ثمانية آلاف دينار[١٤٥]، تصدق بأربعة. وفي الثالثة كان ستة عشر ألفا، تصدق بثمانية. وفي الرابعة كان اثنين وثلاثين ألفا فتصدق بنصفها...

وكان رسول الله يقول: "اللهم احينى مسكيناً، وأمتنى مسكيناً، واحشرنى في زمرة المساكين".

والأفضل لنا ما سأله رسول الله -ﷺ- لنفسه.

ويبين ما ذكرنا أن رسول الله ما تعوذ من الفقر المطلق، وإنما تعوذ من

---

(١٤٥) المفروض أن الدينار يساوى عشرين درهما، وكان تقديره عادة أقل

الفقر المُنْسى، فقد قال: "اللهم إنى أعوذ بك من فقر يُنسى، ومن غنى يطغى".

٦- وقد اختلف العلماء في أيهما أفضل: الشكر على الغنى أم الصبر على الفقر؟ والمذهب عندنا (عند محمد) أن الصبر على الفقر أفضل، قال -ﷺ- "الصبر نصف الإيمان" ولأن في الصبر معنى الابتلاء والغنى يحتاج إلى الفقير، والفقير لا يحتاج إلى الغنى إذ يلزمه اداء حق المال إليه، فالفقير الصابر خير من الغنى الشاكر.

٧- والمذهب عند الفقهاء أن المكاسب كها على الإباحة سواء. وحجتنا في ذلك قوله -ﷺ- "إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها الصوم ولا الصلاة" قيل: ما يكفرها يا رسول الله؟ قال: "الهموم في طلب المعيشة" وقال: "أفضل الأعمال الإكتساب للإنفاق على العيال" ولو لم يكن فيه إلا التعفف عن السؤال لكان مندوبا إليه، فإن رسول الله يقول: "السؤال آخر كسب العبد".

ثم المكاسب أربعة: الإجارة (إجارة الأشخاص، أي: أداء الخدمات) والتجارة والزراعة، والصناعة.

وحجتنا في ذلك أن النبى ازدرع بالجرف، وقال: "الزارع يتاجر ربه".

قال بعضهم: التجارة أفضل، لقوله - تعالى -: ﴿وآخرون يضربون في الأرض﴾[١٤٦] وقوله -ﷺ- "التاجر الأمين مع البررة الكرام يوم القيامة"[١٤٧] (وأكثر مشايخنا على أن الزراعة أفضل من التجارة، لأنها أعم نفعا.. والاشتغال بها أعم، ولأن الصدقة في الزراعة أظهر، وعمل العالم بالعلم معروف والعمل بخلافه منكر..).

ومحمد يأمر بحفظ المال من الإفساد والإسراف والمخيلة والتفاخر

---

(١٤٦) سورة المزمل الآية ٢٠

(١٤٧) السفرة: ملائكته. وفيه إشارة إلى قوله - تعالى -: ﴿بأيدى سفرة، كرام برررة﴾ الآيتان ١٥، ١٦ سورة عبس

والتكاثر ويقول: "الاقتصار على أدنى ما يكفى المرء عزيمة، ومازاد على ذلك من التنعم رخصة والرسول يقول: إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه".

٨- كان أبو حنيفة يتسع وينفق على التعليم، والمؤكد أن محمداً لم ير الإمام جعفراً إذ كان يتسع وينفق، وكلاهما مات عن غير مال، ولعله رأى صاحبه أبا يوسف مات عن مليونين، فساءه عدم إنفاقه، وكانت بينهما جفوة، ولقد نُشئ محمد في النعمة فأنفق مواريثه على تعليم نفسه وتعليم أهل الإسلام.

ورأى محمد من بذخ الرشيد ما لايرضاه منه، فربما رأى في مساهلة أبى يوسف للرشيد ما جعل بين (الصاحبين) جفوة، ولا ريب في أن إشادته بتوجيه (فضول المال) لأمر الآخرة خير يعم الأمة...

وأن محمداً شهد من إنفاق أبى حنيفة على مدرسته ما وقر في ذهنه. وأيادى محمد على الذين احتاجوا إليه درس تعلمه في حلقة الإمام الأعظم.

المبحث الثانى:

من الزهاد العاملين

١- الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١هـ)

الإمام أحمد مثل عظيم من الأئمة، أبرزه الإخلاص لجمع السنة، ليجعل مسنده إماماً للفقه، وأفرزه بين العلماء زهده، ومازه من علماء عصره أنه - وحده - ثبت في رفض القول بأن القرآن مخلوق، وطلبه المأمون ليقتله، ولما بلغ مقد المأمون مات المأمون. وعذبه المعتصم، فتركوه بعد إغماء ظنوا أنه الموت.

يقول -ﷺ-: "قليل الدنيا يلهى عن طريق الآخرة" وأحمد يقول: "ما قل

من الدنيا كان أقل في حساب الآخرة" وهو القائل: "الصبر على الفقر عناء لا يقدر عليه إلا الأكابر".

ومن الأرقام التى يحفظها الإمام أحمد عدد آيات الصبر، يقول: "ذكر الله تعالى الصبر في القرآن في ٩٠ آية، وهو واجب بالإجماع، وهو نصف الإيمان، والإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر".

والشكر يتضمن الصبر والرضا وزيادة، وحسبك قول الله – تعالى –: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾(١٤٨).

وفقه أحمد في المعاملات فقه الحريات، جماعه قول صاحب الشريعة –ﷺ– "المسلمون عند شروطهم إلا شَرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً".

ويفقه هذا الحديث تزدهر المعاملات كل الأزدهار

اما التجارة ففيها جوابه عن سؤال في الزكاة عن (درهم من تجارة برة، ودرهم من صلة الإخوان، ودرهم من التعليم..؟)، "ما منها شيء أحب إلى من التجارة، ولا فيها شيء أكره عندى من صلة الإخوان، وأما التعليم فإنى أرجو ألا يكون به بأس لمن احتاج".

يقول هذا عن أجر المعلم، وعن الصلات التى كانت ترد الى الفقهاء، ويأباها لنفسه ولو جائته من الخليفة.

وكان يأمر أولاده بالعمل، والمبدأ عنده: "ترك المكاسب مع الحاجة كسل، والقعود مع تضييع العيال جهل".

وكان يقترض، وأهمت ديونه بعض القوم، فبعث إليه رجل بضعة آلاف من الدراهم قائلاً: إنه يعلم ما على أحمد من الدين، فلعله يسدد الدَيْنَ ويوسع على عياله.

---

(١٤٨) سورة إبراهيم الآية ٧

وأجاب أحمد: إن العيال بنعمة من الله، وإن الدائن لا يرهقه طلبا، ورد العطية، وبعد عام كان يقول عنها لبنيه: "لو كنا قبلناها لكانت ذهبت".

ويقول ابنه عن ظروف هذه الرسالة: كنا في أيام الواثق (٢٢٧ - ٢٣٣هـ) والله يعلم في أي حالة من الضيق نحن!!.

ومن بعد الواثق فتح الخليفة المتوكل لأحمد أبواب قصره، وتمنى المتوكل لو طهر نفسه وقلبه بقبول أحمد لماله، أو تعليم أولاده، وذهب أحمد، وأقام أياماً في غرفته، يأكل من طعامه الذى جاء به إلى دار الخلافة بين متاعه، ولما أدركوا أنهم يعذبونه كأنه في السجن تركوه.

ومن ماثور قوله: (نعم الإدام الخل).

يقول فيه تلميذه إبراهيم الحربى (٢٨٥هـ) وهو محدث وفقيه زاهد من عظماء القرن الثالث: "رأيت رجالات الدنيا فلم أر مثل ثلاثة: أحمد بن حنبل - ويعجز النساء أن يلدن مثله - ورأيت بشر بن الحارث من رأسه إلى قدمه مملوءاً عقلاً، ورأيت أبا عبيد القاسم بن سلام، وكأنه جبل نفخ فيه علم".

وهذا الجبل من العلم (أبو عبيد القاسم بن سلام) يقول: (جالست أبا يوسف ومحمد بن الحسن، ويحيى بن سعيد "من علماء المدينة" وعبد الرحمن بن مهدى "محدث العراق" فما هبت أحدا منهم ما هبت أحمد بن حنبل، ولقد دخلت عليه السجن لأسلم عليه، فسألنى رجل في مسألة فلم أجبه هيبة لأحمد".

ولا جرم أن الزهد تمكن من نفس الإمام أحمد لما كان في عصر الرشيد وبنيه من بذخ وإسراف وابتذال وبهرجة لكنه يعمل ويأمر بالعمل ولا يرى بأساً في المال الحلال.

وأحمد عليم بما في كتاب محمد بن الحسن عن الاكتساب وبما كان من جفوة بين محمد والرشيد، لما كان ينارفه الرشيد من خطايا للدفاع عن دولة بنى العباس.

٢- السرِى بن المغلس السقطى (٢٤٥هـ):

زميل أحمد في الطلب على هشيم الواسطى، وأبى بكر بن عياش، ويزيد ابن هارون، وسرى هو خال الجنيد (٢٩٧هـ) ومعلمه، والجنيد إمام الصوفية في عصره، وفيما بعده.

والجنيد يرجع تصوف القرن الثالث الهجرى إلى أهل بدر، فيقول عن نفسه وعن خاله: (أخذت عن أبى الحسن "السرى بن المغلس السقطى" وأخذ السرى عن معروف الكرخى، وأخذ معروف عن فرقد السنخى، وأخذ فرقد عن الحسن البصرى، ولقى الحسن سبعين من البدريين).

ويتحدث الجنيد عن خاله وأحمد بن حنبل وعن بشر بن الحارث (الحافى) فيقول: (كان أحمد بن حنبل ها هنا وبشر بن الحارث ها هنا، وكنا نرجو أن يحفظنا الله بهما، ثم إنهما ماتا وبقى سرِى، فارجو الله أن يحفظنى بسرى).

وكان سرِى ينفق أرباح تجارته على الزاهدين وكأنه يعمل لهم بأموالهم لا بأمواله ولم يكن بشر بن الحارث[١٤٩] يقبل من الناس شيئا، بل هو تنازل عن ثرائه للناس، وعزف عن الجلوس للتعليم، واختار الزهد طريقا لحياته، وانقطع عن الناس مع أنه كان فقيها.

قال بعض الناس أريد أن أعرف من أين يأكل؟ فخبره من يَخْبُرُ أمر بِشْرٍ أن له صديقاً عاقلاً لم يكن يظهر أمره هو سرى بن المغلس السقطى.

---

(١٤٩) قال بعض أصحاب بشر بن الحارث: دفناً له بضعة عشر قمطراً وقوصرة "خزانة" ملأى بالكتب التى لم يحدث بها، إلا ما سمع منه نادرا، وإن كان يفتح الكتب في بعض الأحيان، ويحدث عن الفتح الموصلى (٢٢٠هـ) من زهاد الموصل العظماء، ولعله كان يلتمس العلم عنده

وكان بشر يقول: ما سألت أحداً إلا سَرِياً(١٥٠).

وأحمد بن حنبل يقول عن سَرِيٍ ذلك الشيخ الذى يعرف بطيب الندى

---

(١٥٠) وكان بشر يوصى الناس بالعمل وطيب المطعم وإنفاق المال في المستحقين، جاءه رجل عزم الحج يودعه، قال له كم أعددت للنفقة؟ قال ألفى درهم. قال بشر فأي شيء تبتغى بحجك؟ قال: مرضاة الله، قال بشر: فإن أحببت مرضاة الله وأنت بمنزلك وتكون على يقين من مرضاة الله أتفعل ذلك؟ قال نعم، قال بشر اذهب فأعطها عشرة أنفس: مدين يقضى بها دينه، وفقير يلم بها شعثه، ومُعْيِل يعول بها عياله، ومربى يتيم يفرحه... وإن قوى قلبك أن تعطيها لواحد فافعل، فإن إدخالك السرور على قلب أمرئ، وتغيث لهفان.. أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام.. وإلا فقل لنا ما في قلبك. قال الرجل: سفرى أقوى في قلبى. فتبسم بشر وقال: المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس أن تقضى به وطرا يشرع اليه فظاهرت. وكان بشر يأكل الطعام بغير إدام ويقول "أذكر العافية فأجعلها إداما" بل كان يقول "تعلمت من أختى فإنها كانت تجتهد ألا تاكل ما للمخلوق فيه صنع" وأخته تصنع الغزل وتبيعه بين أتقياء الفقهاء.

روى عبد الله بن أحمد بن حنبل: دق علينا الباب دَاق، فإذا أمراة تستأذن على أبى، فأذن، فسألته أنا أمراة اغزل بالليل في السراج، فربما أطفئ السراج فأغزل في القمر، هل على أن أبين غزل القمر من غزل السراج؟ قال إن كان عندك فرق فبينى ثم قالت: يا أبا عبد الله، هل أنين المريض شكوى؟ قال أرجو ألا يكون شكوى، ولكنه اشتكاء إلى الله، ولما خرجت قال: يا بنى ما سمعت إنسانا قط سأل مثل هذا، اتبع هذه المرأة اين تدخل؟ فأتبعتها، فإذا هى قد دخلت بيت بشر، وإذا هى أخته، فلما قلت لأبى قال: "محال أن تكون هذه إلا أخت بشر بن الحارث".

ويلاحظ أنها لم تسأل بشرا عن هذا البيع، ولا هذا الأنين، وإنما سألت الإمام أحمد، وبشر بحر في الفقه، وإنما انقطع عنه لما فيه من تكريم الفقهاء.

ولتلاحظ أن هذا كان في القرن التاسع الميلادى، وفيه كان شارلمان امبراطورا لأوروبا لا يقرأ ولا يكتب.

(الكرم) وتصفية القوت، ونظافة الثوب، وشدة الورع.

وسَرِى يحاول أن يتقرب إلى الله بالبر بأحمد بن حنبل، ويرده أحمد.

قال له سَرِى أحذر آفة الرد فهى أشد من آفة الأخذ.

قال أحمد: أعد على ما قلت، فأعاده، وشرح أحمد صدرا بمقال سرى، ثم أجاب: ما رددت عليك إلا لأن عندى قوت شهر، فإذا كان بعد شهر فأنفذه لى.

وكان أحمد يعيش من إجارة حوانيت ورثها، قيمتها نحو دينار في الشهر، ولم يحتج لمال أحد.

يقول سرى: (حمدت الله مرة، فأنا استغفر الله من ذلك الحمد ثلاثين سنة: كان لى دكان فيه متاع، فوقع الحريق في السوق.. فخرجت أتعرف خبر دكانى، فلقيت رجلاً قال: أبشر فإن دكانك قد سلم، فقلت: الحمد لله، ثم إنى فكرت فرأيتها خطيئة).

وربما سوغ له ذلك أنه لم يَشْرَكْ جيران السوق في بأسائهم، أو امتاز من بينهم بفضل الله والنجاة، أو كان لرأيه سبب من "مروءة" الصوفية المتنادحة الأتجاهات والملاحظات، والمثل التالى يجلى لنا بعض حقائق تجارته أو سمسرته، أو السوق وسعر السوق:

اشترى السرى يوما لوزا بستين دينارا، وعزم أن يبيعه بثلاثة وستين.

وجاء دلال يطلبه بسبعين دينارا.

قال سرى: خذه بستين وثلاثة.

قال الدلال: إن الثمن سبعون.

قال سرى: إنى عقدت بينى وبين الله عقداً أن أبيعه بستين وثلاثة.

قال الدلال: وأنا عقدت بيني وبين الله عقداً ألا أغش مسلماً[١٥١].

وهذا خلاف يشرح الصدر لدقة السوق وعمالها، ويفتح الأعين على الاكتفاء بالربح المعقول ٥٪ وعلى أمانة الدلال أو تاجر الجملة يتمسك بسعر السوق، وعلى منزلة السوق ممن يبيعون ويشترون، فهو سعر شاركت فيه آليات السوق - كما يسمونها الآن - وحركة المعاملات، وكمية السلع وجودتها وتقدير سعرها تقريره الصحيح، والجميع يعبدون الله، والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه.

يقول إبراهيم النخعى أستاذ مدرسة الكوفة: كان الصانع أحب إليهم من التاجر، وفي الصناعة إضافة إلى المال، وفي التجارة زراعة وصناعة وتجارة ولكلٍ فضلٍ.

ولئن حببت التجارة إلى إمام أهل السنة في القرن الثالث، إن الصناعة كانت أحب في القرن الأول لأهل العراق.

---

(١٥١) في بحث الإمام الأكبر الشيخ/ محمد محمد الفحام بكتاب المؤتمر الخامس لمجمع البحوث في الأزهر ص ١٩٨٣ أورد اسم السرى السقطى بين العلماء الذين زاروا بيت المقدس: الإمام الشافعى، الإمام الليث بن سعد، الإمام سفيان الثورى، بشر الحافى السرى السقطى وكيع بن الجراح، الإمام الغزالى، أبو بكر الجرجانى، أبو بكر بن العربى

الفرع الثالث
الحسبة ومالية الدولة

المبحث الأول:

الحســـــبة:

١- ولى رسولُ الله -ﷺ- الحسبة بعد فتح مكة سعيد بن العاص، فكان واحدا من بنين أربعة لسعيد جاءوا خليفة رسول الله أبا بكر بعد أن استخلفه المسلمون قائلين للخليفة: نحن لا نعمل إلا لرسول الله، فقبل منهم، لكن العمل أثبت حاجة المسلمين إليهم فعملوا، ومنهم من استشهد في خلافة أمير المؤمنين عمر.

٢- وولى عمر في خلافته عدوية من قومه من المسلمين الأولين، زوجها "حسنة" من جلساء عمر، وابنها "شرحبيل بن حسنة"، قائد واحد من جيوش عمر الأربعة التى انتصر بها خالد في اليرموك، ولم تكن تعفى عمر من ملاحظاتها، بل بدا لها يوماً أن تلاحظ على رسول الله أنه لم يستجب لشكايتها، إذ احتاجت ودخلت دارها فرأت شرحبيل قاعداً والقوم في الخارج يصلون، فاعتذر لها بأن الرسول الكريم لبس قميصه وخرج يؤم القوم.

فاستغفرت لربها، وقالت: كنت ألومه ولا أعلم أن هذه حاله.

وبورك في الأرزاق وتكاثرت السلع والمعاملات فولى عمر السائب بن يزيد وسمراء بنت نهيلة أيضاً.

وولى عمر بن عبد العزيز سليمان بن يسار حسبة المدينة وكان من فقهاء المدينة المشهورين. وعين الرشيد محتسباً في مدة خلافته.

والحسبة في جملتها: تنفيذ واجب الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه، والنهى عن المنكر إذا ظهر فعله، وهى واسطة بين القضاء في المعاملات،

وبين الحكم في المظالم، وهى أقرب – في عصرنا هذا – من أعمال الضبطيه القضائية.

فللمحتسب أن يجتهد رأيه في العمل وفي النهى عنه، وفيما يتعلق بالسوق وبالحِرف دون أن يتعرض للشرع، فالحكم بالشرع عمل القاضى أو الإمام.

والحسبة في غايتها ضمان لتطبيق الشريعة في الحياة الواقعة وتصحيح الانحراف في مكان حدوثه.

في كتاب الماوردى (٤٥٠هـ – ١٠٥٨م) "الأحكام السلطانية" – وهو قاضى القضاة في عصره – أن للمحتسب مراقبة حقوق الله – تعالى – وحقوقه المشتركة والمتعلقة بالأدميين، أي: بالعبادات والطاعات والمعاملات، فيراعى أداء الفروض، وأحوال أصحاب الحِرف، والمرافق العامة، والموازين والمكاييل وأحوال أهل الحرف والأسواق والطرق العامة، وله أن يطلب البر بالحيوان، وحرمة المسكن، ويمنع أدوات النقل البرى والبحرى من تجاوز حمولتها، وله أن يمنع المنكر، وهذا معنى واسع.

وللحلال والحرام الشأن الأول في الإباحة والمنع، ومن ثم الصلةُ الوثيقة بالدين، ولما كانت القاعدة رفع الحرج كانت لوظيفة المحتسب خطورتها.

وللماوردى موقف مع السلطان إذ أراد أن يتلقب بملك الملوك، قال العلماء: يجوز، وقال الماوردى: لا. ولم يلبث السلطان إلا قليلا حتى مات، وزالت الدولة بتمامها.

وفي صبح الأعشى يقول القلقشندى: "الحسبة وظيفة جليلة رفيعة الشأن، موضوعها التحدث في الأمر والنهى، والأخذ على يد الخارج على طريق الصلاح في معيشته وصناعته".

ويخبرنا أن القاهرة كان فيها للحضرة السلطانية محتسبان، واحد منهما

بالقاهرة وهو أعظمهما قدرا وأرفعهما شأنا، وله التصرف بالحكم والتولية بالوجه البحرى خلا الإسكندرية؛ فإن لها محتسبا يخصها، والثانى في الفسطاط (محتسب مصر) ومرتبته منحطة عن الأول، وله التحدث والتولية بالوجه القبلى بكماله، والذى يجلس منهما بدار العدل في أيام المواكب محتسب القاهرة فقط دون محتسب مصر (الفسطاط) ومحل جلوسه دون وكيل بيت المال.

ويقول القلقشندى: (وأول من قام بهذا وصنع الدرة[١٥٢] عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – في خلافته).

والأولية لعمر في حمل الدرة مسلمة، لكنه كان متبعا في تعيين المحتسب، ولم يكن مبتكرا، فرسول الله –ﷺ– هو البادئ.

ويضيف القلقشندى: (لما اتسع نطاق التجارة وأصبحت موردا لأهل الإعواز من كافة البلاد يتبادلون فيها حاجاتهم وقع غش فاحش في التجارة، وصارت الصيارف من اليهود وغيرهم يعطون مالهم بالربا على أن يعاد إليهم المثل في نهاية العام مثلين وأكثر منه، فأقام الرشيد (في القرن الثانى) محتسبا ليكون بالأسواق، ولفحص الأوزان والمكاييل من الغش، وينظر في معاملات التجارة، على أن تكون جارية على سنن العدل حتى لا تجامل الشرفاء على الضعفاء، والأغنياء على الفقراء).

وإحياء الرشيد للوظيفة بعض إصلاحاته، والحسبة أمر بالمعروف ونهى عن المنكر.

ويتحدث القلقشندى عن المحتسب في عصر الدولة الفاطمية (٢٥٨ إلى ٤٧١) فيقول: (كان المحتسب من وجوه العدول في الدولة الفاطمية، يقرأ قرار تعيينه على المنبر، يده مطلقة في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولا

---

(١٥٢) السوط، أو العصا التى يستعملها المحتسب في إبان مروره، يشير بها، أو يحملها فيستعملها عند التباطو في تنفيذ أمره

يحال بينه وبين مصلحة أرادها، وله تعيين نواب له بالقاهرة ومصر (الفسطاط) كنواب له، ويجلس بجامعى مصر والقاهرة يوماً بعد يوم) أي: في جامع عمرو والجامع الأزهر.

وفي القرن الثالث كانت القيروان في تونس صاحبة سلطان في صقلية ابتداء من ٢١٣هـ حين غزاها زياد بن الأغلب وعلى رأس أسطوله قاضى القيروان أسد بن الفرات، ومن قبل ذلك أصدر أبو جعفر المنصور في سنة ١٥٥هـ أمرا بتنظيم سوق القيروان.

٣- وكان يحيى بن عمر الكنانى (٢٨٩هـ) (قاضيا للسوق) في القيروان بعد أن ولى الحسبة زمانا، وقد خلف كتاباً عنوانه (أحكام النظر في جميع السوق).

وهو فقيه مالكى وضع موسوعة الفقه المالكى في كتاب (المستخرجة) وفيها قول ابن حزم: (لها عند أفريقية (تونس) القدر العالى والطيران الحثيث).

عالج يحيى في إيام حسبته العناصر التقليدية في "أجهزة السوق" كالمكاييل والمقاييس والموازين، وراقب البيوع، ومنع غش اللبن باللبن، والزيت بالزيت، والقمح الدون بالقمح الجيد، وإراقة الماء أمام الدور والحوانيت، وكنس الأسواق، ثم تصاعد عمله حسب علمه، فجعل في البيع للجاهل بالثمن حق الرجوع في البيوع، وتحدث عن الأسعار فروى أن (أناساً أتوا رسول الله فقالوا: يارسول الله سَعّر لنا أسعارنا. فقال: "يا أيها الناس إن غلاء أسعاركم ورخصها بيد الله سبحانه، وأنا أرجو أن ألقى الله وليس لأحد عندى مظلمة من دم أو مال).

لذلك قصر يحيى تدخل القاضى في الأسعار على حالات خاصة هى:

١- "تواطؤ" التجار على البيع بسعر يضر بالناس، فإن (على الوالى

إخراجهم من السوق، ويدخل غيرهم..).

٢- من نقص من سعر أهل السوق أُخرج، فقد قال عمر بن الخطاب لمن عرض زبيباً في السوق: (إما أن تزيد في السعر وإما أن ترفع من سوقنا).

٣- الاحتكار إذا أضر بالسوق، فهذا مذهب المالكية - وهو منهم - وحكم المحتكر أن تباع سلعته على صاحبها، وله رأس ماله، ويؤخذ الربح ويوزع في الصدقات، وإن عاد لمثل ذلك عزر بالضرب، والطواف به، والحبس.

٤- ومنع يحيى شراء قوت سنة إذا كان ثمة غلاء في الأسعار (حتى لا يرتفع السعر أكثر).

٥- ومنع بيع السلعة في غير سوقها (فهنا سوق لهذا، وهناك سوق لذلك).

٦- ومنع التاجر أن يبيع السلعة في داره، بل هو يخرجها إلى العلانية، فالعلانية من آليات التسعير وإشراك الناس أو إشرافهم، فإذا بيعت بأقل من سعرها في البيت فهذا بيع الخفية عن الناس، وإذا لم يضر بالسوق كان للناس أن يبيعوا كيف شاءوا.

وظاهر أن اختصاصات قضاء الحسبة هذه تنبئ عن ولايته وظيفة القضاء في سوق القيروان، وهو بهذا أول قاضٍ تجارى في الإسلام يتخذ السوق مقراً له، ويقيم فيه محكمة للتجار.

ويلاحظ جانب الموضوعية في هذا الإجراء، واعتبار السوق شخصاً اعتبارياً، واعتبار سعرها حقاً للغائب والحاضر، وهذا النظر مبنى على أن التجارة مؤاخذة بتقوى الله، مخاطبة بقوله - تعالى -: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا

واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾[١٥٣] وقوله: ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾[١٥٤] وتعليل الرسول -ﷺ- لعدم التدخل في الأسعار يجعل حرية الأسعار من أعلى درجات النظام العام في الإسلام.

٤- وللقرشي (محمد بن أحمد) كتاب (معالم القربة في أحكام الحسبة)[١٥٥]: يبدأ بشروط الحسبة، ثم تتتابع الأبواب في (معرفة الموازين والأرطال والمثاقيل) وفي (الحسبة على الطحانين والفرانين والخبازين) وعلى (الخياطين والرفائين) وفي (الحمامات) وفي (مؤدبي الصبيان) وعلى (معاصر الزيوت) وعلى (النجارين والبنائين) الى آخر أبواب سبعين.

إليك مثلاً مما جاء في الباب الأول (للرقابة على الأطباء).

(الطب علم نظرى وبشرى أباحت الشريعة تعلمه، لما فيه من حفظ الصحة، ودفع العلل عن هذه البنية الشريفة.

وينبغى أن يكون لهم مقدم (نقيب) من أهل الصناعة (أي: طبيب).

إذا دخل الطبيب على المريض سأله، ثم يرتب له قانونا في الأشربة والعقاقير، ثم يكتب نسخة لأولياء المريض... وإذا كان من الغد حضر ونظر إلى دوائه وقارورته، وسأل المريض: هل تناقص مرضه؟... وهكذا إلى أن يبرأ أو يموت، فإن برئ من مرضه أخذ الطبيب أجرته وكرامته، وإن مات حضر أولياؤه عند الحكيم المشهور وعرضوا عليه النسخ التى كتبها الطبيب لهم، فإن رآها على مقتضى الحكمة وصناعة الطب من غير تفريط ولا تقصير من الطبيب قضى بفروغ أجله، وإن رأى الأمر بخلاف ذلك قال لهم:

---

(١٥٣) سورة الأعراف الآية ٩٦

(١٥٤) سورة المائدة من الآية ٦٦

(١٥٥) ترجمة إلى الإنجليزية: روبن ليوى، الأستاذ بجامعة كمبردج سنة ١٩٣٨م

خذوا رديتكم من هذا الطبيب فإنه هو الذى قتله).

٥- ومن المؤلفات في الحسبة كتاب (الاحتساب) للناصر للحق الأطروش، يتحدث عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر للفرد وللتاجر والصانع في كل ما يتعلق بالخير والشر في طريق الحياة من آداب أو سوء سلوك، أو نصفة أو تراحم، بشرط ألا يعزر المحتسب أحدا، فالتعزير عقوبة ينزلها القاضى بمرتكب المعصية، والمحتسب أداة للإصلاح بين الناس لا لتعزيرهم، وسلطنه أشكل بسلطة الضبطية القضائية، وهو قريب من القضاء في محل المخالفة بالقهر على إزالتها، وهذا مشروع للسلطة بلا خلاف.

روى عبد الله بن عمر: أمرنى رسول الله -ﷺ- أن آتيه بمدية، فأتيته بها، وأرسل بها فأرهفت، فأعطانيها وقال "أغد على بها" ففعلت، فخرج بأصحابه إلى أسواق المدينة، وفيها زقاق خمر قد جلبت من الشام، فأخذ المدية منى فشق ما كان من تلك الزقاق بحضرته، ثم أعطانيها، وأمر الذين معى أن يمضوا معى ويعاونونى، وأمرنى أن آتى الأسواق كلها فلا أجد زق خمر إلا شققته، ففعلت، فلم أترك زق خمر إلا شققته.

وعبد الله بهذا قد ولى الحسبة لعمل معين، وأعانه عليه رسول الله -ﷺ- بأعوان، وقد شملت ولايته ما في الأسواق كلها من زقاق.

٦- وقد أنشأت دولة السويد في عصرنا الحالى جهة قضائية في العصر الحديث تسمى Institue Ombudoman.

تدخل الحسبة في اختصاصها إلى جوار نظم القضاء وهذه شهادة بتقدم نظام الاحتساب الذى أنشأه رسول الله -ﷺ- ونفذه المسلمون ورأينا من تطبيقاته محكمة يتحدد اختصاصها المكانى بالسوق، واختصاصها الفعلى بأعمال التجارة، ومقرها في السوق ذاتها.

المبحث الثانى:

في علم المالية:

نشأ هذا العلم مع نشأة الدولة واستعمالها العمال لجمع الزكاة خاصة، وما صدر من السنة الكريمة في غلول بعض، وقد عالجه الفقهاء على ضوء عمل الخلفاء، وسن عمر آداباً وواجبات لاستيداء حقوق الدولة من زكاة وخراج

جئ بأموال الجباية، فقال لعمالها: "إنى لأظنكم قد أهلكتم الناس".

قالوا: لا والله ما أخذنا إلا عفوا وصفوا.

قال: لا سوط ولا نَوْطَ؟

قالوا: نعم.

قال: الحمد لله الذى لم يجعل ذلك على يدى.

ومن بعده كتب أمير المؤمنين على إلى واليه:

(إنى أتقدم إليك الآن، فإن عصيتنى نزعتك، ولا تبيعن لهم (الرعية) حمارا ولا بقرة ولا كسوة شتاء أو صيف فارفق بهم).

وكتب لواليه على مصر: الأشتر النخعى في تفقد الخراج وصلاح الجباة، وعمارة الأرض: (فإن الخراج لا يدرك إلا بالعمارة).

ومن مؤلفات أبى يوسف (١١٣ - ١٨٢) كتاب الخراج إلى الرشيد في مالية الدولة نكتفى للتعريف به بفقرات منه:

يبدأ بقوله: (إن أمير المؤمنين سالنى أن أضع كتابا جامعا يعمل به في الجباية.. والعشور والجوالى وغير ذلك، وإنما أراد بذلك أن يرفع الظلم عن رعيته... وقد فسرت ذلك وشرحته...)

ثم استطرد يقول (أصبحت وأمسيت وأنت تبنى لخلق كثير استرعاكهم الله وائتمنك عليهم، وولاك أمرهم، ولا يلبث البنيان إذا أسس على غير تقوى الله أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه وأعان عليه، فلا تضيعن ما

قلدك الله من أمر هذه الأمة والرعية، فإن القوة في الفعل بإذن الله.. فأقم الحق فيما ولاك الله عليه، واجعل الناس عندك في أمر الله سواء، القريب والبعيد، وإنى أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك الله، ورعاية ما استحفظك الله، ولا تنظر في ذلك إلا إليه.. وقد اجتهدت لك في ذلك، لم آلك والمسلمين نصحا ابتغاء وجه الله وثوابه، وخوف عقابه...).

ثم تطرق إلى جواب رسول الله على سؤال أبى ذر إياه أن يمنحه إمارة: "أنت ضعيف، وهى أمانة، وهى يوم القيامة خزى وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى ما عليه فيها".

وانتقل من السنة إلى ضرب الأمثال من أمير المؤمنين عمر.

فقد روى أنه كان إذا جئ بخراج العراق جمع عشرين من المصريْن "الكوفة والبصرة" في العراق يشهدون أربع شهادات بالله أن هذا الخراج طيب، ليس فيه ظلم لمسلم أو لمعاهد.

وعمر يذكر برأى أبى بكر أن الناس في هذا المال سواء، لأنه معاش، والأسوة فيه خيرمن الأثرة.. ويذكر أبو يوسف رأى عمر فيما يلزم الجباة أنفسهم به، من المشورة والفقه، وخوف الله، قائلا: "فإنك إنما توليه جباية الأموال وأخذها من حلها، وتجنب ما حرم منها" وأضاف واجب العدل واللين للمسلم ولأهل الذمة، والغلظة على الفاجر وترك اتباع الهوى "فإن الله ميز من اتقاء وآثر طاعته على ما سواها"

وذكره بأن أساس الالتزام المالى هو القدرة، وأن رسول الله -ﷺ- قال: "من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه" وأن عمر كان يسأل من يفرض عليهم الخراج: أيطيقونه؟"

وكتب حفيده عمر بن عبد العزيز إلى ولاته بذلك في آخر القرن الأول.

ولم يفت أبا يوسف أن يبصره بواجب الجلوس للناس، فقال له: (لو

تقربت إلى الله يا أمير المؤمنين بالجلوس لمظالم رعيتك في الشهر أو الشهرين مجلسا واحدا تسمع فيه المظلوم وتتكر على الظالم؟)

وقال عن الجباة: (إن عليهم ألا ينفروا الناس بمظهرهم، وأن يكونوا على قدر من المواساة، يعودون المرضى... ويلبسون كالناس، ولا يركبون براذين، أو يركبون ما يثير).

ولقد نزع عمر والياً لم يَعُدْ مريضاً، وآخر لم يتمكن من الدخول عليه رجل ضعيف.

× × × × × ×

ولما دنت دنيا أبى يوسف من الآخرة ذكر من تاريخ حياته ذنبا واحدا اجترحه في مجلس القضاء.. فكان يبكى ويقول: (اللهم إنك نعلم أنى وليت هذا الأمر فلم أمل إلى أحد الخصمين إلا في خصومة نصرانى من الرشيد، لم أسو بينهما، وقضيت على الرشيد، ولكنى رفعت النصرانى إلى جانب الرشيد ما أمكننى، ثم سمعت الخصومة قبل أن أسوى بينهما).

٢- أبو عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤هـ):

القاسم بن سلام من أعيان المحدثين في القرن الثالث للهجرة، تتلمذ على الشافعى مع الإمام أحمد بن حنبل، وله الكتابان المشهوران: (تفسير غريب الحديث وشرح كلماته)[١٥٦] ظل يؤلفه أربعين عاما، وكتاب (الأموال).

وفي القاسم قول إبراهيم الحربى الذى اسلفناه في صدد الإمام أحمد بن حنبل.

---

(١٥٦) هذا الكتاب أقدم كتاب عربى مكتوب على ورق، إذ هو مكتوب سنة ٢٥٣هـ وهو من مخطوطات جامعة ليدن بهولندا

وذات يوم سأل أحمد بن حنبل في حلقته سائل، فأجابه أحمد: "إيت أبا القاسم بن سلام؛ فإن له بياناً لا تسمعه من غيره" قال السائل: فسألت أبا عبيد فشفاني جوابه، وأخبرته بقول أحمد عنه، فقال: "يا ابن أخي: ذلك رجل من عمال الله نشر عمله في الدنيا، وذخر له عنده الزلفى".

زار القاسم أحمد ذات يوم، ثم قال عن هذه الزيارة: (فلما أردت أن أقوم قام معي، فقلت: لا تفعل يا أبا عبد الله، قال: قال الشعبي: "من تمام زيارة الزائر أن تمشي معه إلى باب الدار، وتأخذ بركابه" ومشى معي إلى الباب وأخذ بركابي).

وولى أبو عبيد قضاء طرسوس، وبلغ من أمره أن قال فيه – والي خراسان طاهر بن الحسين: (الناس أربعة: ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، والقاسم بن معن في زمانه، وأبو عبيد في زمانه).

وصله أبو دلف بثلاثين ألف درهم فردها وقال: أنا في جنب رجل ما يحوجني إلى صلة غيره، فلما بلغ ذلك (طاهر بن الحسين)، وصله بثلاثين ألف دينار فقبلها، ثم طلب إليه أن يشترى بها سلاحاً يتوجه به إلى الثغر للدفاع عن الإسلام فصنع ذلك.

وأبو عبيد يقيم صلاح الدولة الإسلامية ونجاحها على تقوى الله، كمثل أبي يوسف، ويعتمد على السنن مثله، ويروى عن خليفة رسول الله أبي بكر، وعن أمير المؤمنين عمر، ويستفتح بقول رسول الله – عليه الصلاة والسلام – "الدين النصيحة" قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: "لله ولرسول ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامتهم[١٥٧]".

---

(١٥٧) عن كتاب (من التراث الاقتصادى للمسلمين)، للدكتور/ رفعت العوضى، أستاذ الاقتصاد الإسلامي بجامعة الأزهر مكتبة الكليات الأزهرية

يقول في أرض الحمى المخصصة لإبل الصدقة أو غنمها: قول عمر لعامله على أرض الربذة إذ حماها: (اضمم جناحك على الناس، اتق دعوة المظلوم فإنها مجابة، وأدخل رب الغنيمة، ودعنى من نعم بن عفان ونعم بن عوف، فإنهما إن هلكت ماشيتهما رجعا إلى نخل وزرع، وإن هذا المسكين إن هلكت ماشيته جاء يصرخ).

وكل عناية بالعنصر البشرى مزية إنسانية، مردها إلى التزام أخلاقى، فالمال يجب أن يؤدى عنه صاحبه زكاته بنفس راضية، وفي ذلك قوله -ﷺ- للناس: "لايصدر المصدق عنكم إلا وهو راض".

ويقول جرير بن عبد الله لبنيه: "يا بنى إذا جاءكم المصدق فلا تكتموه من نعمكم شيئا، فإنه إن عدل فهو خير لكم وله، وإن جار عليكم فهو شر له، وخير لكم، ولا تدعوا إذا صدق الماشية وصدرت أن تأمروه أن يدعولكم بالبركة".

وخطب أبو بكر: "إن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى".

وكتب عمر إلى أبى موسى: "إن الرعية مؤدية إلى الأمير ما أدى الأمير إلى الله، فإذا رتع رتعوا".

وعلى ذلك جرى كتاب الأموال فبحث في صنوف الأموال التى يليها الإمام للرعية، وأصول ذلك في الكتاب والسنة، وبيان إنفاقها.

وتكلم عن الصدقة وإنفاقها في محل تقديمها، والزكاة وموارها ومصارفها، والتجارات والديون وما تجب زكاته من الديون.

وفي الكتاب تختلط أموال الدولة بالأموال التى تؤدى عنها الزكاة (فالزكاة ليست مالا عاما، وإنما هى حق الفقراء يستوفونه من حائزه).

وتظهر الحرية التامة في تبادل التجارات بين البلدان في قوله -ﷺ-"لا يدخل الجنة صاحب مكس" ولا توضع قيود التبادل إلا على دار الحرب.

ويروى جواب عبد الرحمن بن معقل عن سؤال: من كنتم تعشرون؟ قال: (تجار الحرب (دار الحرب)، كما كانوا يعشروننا إذا أتيناهم)، ذلك ما كان يفعله عمر بن الخطاب.

وقد تبع عمله عمر بن عبد العزيز فيْ أرض مصر مع فلسطين، فكتب إلى واليه عبد الله بن عوف القارئ: (أذهب إلى البيت الذى برفح[١٥٨] الذى يقال له "بيت المكس" فاهدمه).

وينقل عن عمر بن الخطاب حين فصل في ملكية الأرض المفتوحة قوله (ما من أحد من المسلمين إلا له حق في هذا المال، أُعْطِيَهُ أو مَنِعَهُ).

وأن عمر قرأ بعد ذلك الآيات: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾[١٥٩] ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم﴾[١٦٠] ﴿والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم﴾[١٦١] ﴿والذين جاءوا من بعدهم﴾[١٦٢] فاستوعبت هذه الآيات الناس.

ويذكر حق المعونة في سؤال الناس كما قال رسول الله -ﷺ-: "لرجل تحمل بحمالة بين قوم، ورجل أصابته جائحة فاجتاحت ماله، ورجل أصابته فاقة".

وعن الحد الأدنى للعطاء يذهب بعض الفقه إلى إعطاء ما يكون رأس مال، والإمام مالك يترك ذلك لإجتهاد المعطى وحسن ظنه.

---

(١٥٨) بلد على حدود مصر وفلسطين

(١٥٩) سورة الحشر الآية ٧ .

(١٦٠) سورة الحشر الآية ٨ .

(١٦١) سورة الحشر الآية ٩ .

(١٦٢) سورة الحشر الآية ١٠ .

وأبو عبيد يرى أن التوسعة خير، ونقل عن عمر أنه يجوز شراء مسكن.

ويضيف حالات: إغاثة الأطفال، لقوله -ﷺ- "من تُرك كَلاً فإلينا، ومن ترك مالاً فلورثته".

ويقول الحسن بن على: "يجب سهم المولود إذا استهل" ويذكر الإعانة على الزواج، والعطاء لتعليم القرآن، وإعطاء علاوة زواج للمتزوج، وإجراء الطعام على الناس المحتاجين شهريا.

ويذكر أبو عبيد تسوية أبى بكر بين الناس، وتفضيل عمر فيما بينهم حتى قال أخيراً: "لئن عشت إلى هذا العام المقبل لألحقن آخر الناس بأولهم حتى يكونوا بياناً واحداً".